قاسم حداد

الوردة الرصاصية

في البدء كانت جنة الرؤيا
أرى فيما أرى
تبكي صنوبرة على صَحْن المدينة، والخيام تجلل الرؤيا
أرى طرقا ستأخذني إلى طرقٍ ستأخذني إلى طرق وبحراً كالمدى
فيما أرى
كانت ستعشقني العذارى. سوف أصبح نجمةً
في شرفة. لو نشرة المذياع قالت آخر الأخبار قبل
الهجرة الأولى
رأيتُ وما رأيتُ
مدينةً تمشي وعذراواتها يَفْقِدنَ عشاقا ويفْتُقْنَ القميص
ويخترفن الغزل كي يفْتُقْنَ ثانيةً
رأيتُ كما رأيتُ
لهنَّ شاهقةُ الرؤى / لي منتهى شجرٍ سيحنو فوق
جنتيَ المحاصرة المباحة / هل رأتْ تفاحةُ الفصحى قلنسوةُ
البلاغة، غيمةُ الشعراء / كانت جنة الرؤيا بدايتيَ الاخيرة
هل رأتْ فيما رأيْتُ
نهايةَ الهجرات / كل مدينةٍ وَجْرٌ ومنعطف السلالةِ
جيفةٌ ترثُ الجزيرة
هل أرى وطناً يعيد الشكلَ، يمزُج جنة الرؤيا بفوضايَ
الجميلة، يخطئُ المعنى معي، يهتاج في لهب السبايا
قالت الأخبار هجرتيَ الكسيرة في طريق كلها طرقٌ مُطَوَّقةٌ
بعذراوات
يحرسنَ المخيم بالدم العاري
ويسطعن انتشاءً في دم لي
أو دمٍ لغموض أخباري

لهنَّ خفائفٌ يَخْفِقْنَ فوق مخيمٍ وكنيسةٍ تنأى
رأيت صلاتهن جنازةً.
يعشقن فرساناً ويَفْتُقْن القميصَ
لكي يطيبَ الغزل. يفتحنَ الصدور. لهنَّ جرحٌ وردةٌ في
القلب. يفضحن العواصمَ بالمخيم
هل أرى فيما أرى
مرآتيَ انهارتْ على حجر الطريق ورفقتي / يَنْصِبْن اشراكا
يسمين الخراب حديقة والماء مأوى
يبتكرن نهودهن، يضعن في شُرُفات أحلامي حناجرهن
لي عِشْقٌ مغامرةٌ بلادٌ هيأتْ أسرارها
لذبيحة الرؤيا
أرى فيما أرى
مدناً تجرجر عارها ومدينةً تستنفر الأسرى
ترصّع جمرها مختالةً
وتصيح بي في هودج الهجرات
لي ماءٌ يقاومني لكي أنسى
لها ماءٌ يسمى ملجأً وخديعة تتذ
النساءَ
يطأنَ قلبي
كل ما يُنسى يسمى جنةَ الرؤيا
لهن تميمةٌ في طينة الجسد الطريّ / وكلما أنسى
اسمّي وردة الفوضى عشيقتي الصغيرة. كلما أنسلُّ
من ليل المدائن، من سلالة جيفةٍ ترثُ الجزيرة،
كلما...
في جنة الرؤيا أرى مستقبلًا
وأرى حفيرة.

— 2 —

أسْعَفَتْهُ اللغاتُ ليحتملَ الموت
كي يشهد الشرقَ مستسلماً للغروب

حوله جوقةٌ / ليس للشرق، لم يبق إلا صدىً للقيود
التي تَنْحِتُ العظمَ / إني بريءٌ من الشرق

من قلعةٍ من كهوفٍ
بريء من الصمت مختبئاً في الكلامْ.
اللغات التي أسعفتني الى الموت غادرتُها
ألجأ الآن للخيمة الحرة المشتهاة
ألجأ الآن للتيه للمنتهى / ليس لي
للبيوت التي طاردتني
لجبانةٍ ضاقَ بي قبرها
للمدى يحضُن الطائرات المغيرة ليلًا
ويغتالني.

— 3 —

مشى في شهوة الفوضى يواري كل شيء في فضاء الشرق في شكل له لا يقبل الترميمْ

مشى في وحشة التهويم

لن يصلَ الكلامُ اليه
يمضي شاهقاً يُفضي لجنَّتِهِ التي اشهى
يُؤالفُ أم يخالفُ
أم يؤدي طاعةً للطقس في ردهات
هذا الكهف
لا تسأل
فقد أضحى بعيداً نحو جنتهِ
وحيداً صارَ في حلٍ من التنظيمْ
لن يصغي لمنعطف اللغات، تراثه تيهٌ
ويخرج من جمال رماده شعبُ الشظايا
شهقةُ القنديل
جَلْجَلةُ الكتابة والصدى
وفضيحةُ التنجيمْ

يمشي خارج التقويم.

— 4 —

أسْعَفَتْهُ / ولكنها حاصرتني
رَمَتْهُ على كوكب الليل / هاجرتُ كي أفضحَ الليلَ في الشرقِ
لكنها /

في غبار التراتيل كانت له
للذي نكهةُ الخبز في ساعديه
الذي يبْرأ الشرقُ من لثغةٍ في يديه
الذي
أسعفتْهُ اللغاتُ وصلّت عليه

التي أستعفتني شكتني لشرق النهايات / تحنو عليه بشمس رصاصية / ودّعته / دعته لكي يقبل القتلَ، كي يحسن اللغو واللهو كي يستفيق الحطامُ إلا لا هي/
لكنها حاصرتني.

— 5 —

سألوه
واشتبكت جيوشٌ فوق جثته
تُلائمُ
أو تقاومُ
طينة الجسد الرماديّ احتمتْ بسلالة الشورى
تقاوم أو تلائم
طينة الجسد الطري تجاسرتْ
عَبَرَتْ بلاداً كالشواهد، راوَدَتها شهوة المنفى
تلائم ؟!

عندما سألوه كانت نخلةُ الرؤيا تغيم بمقلتيهِ
وكان تاريخٌ يضلله الوضوح
سألوه
كان موزعا بين السقيفة واحتمالات الخلافة
واضطراب النص والفتوى
ومختلف الشروح
سألوه في شفق الوقيعة والمشانق كلها
كانت له
قاومت ؟!
لكن ما الذي يبقى
تُقام لأجلكَ الرايات
موتُكَ سيدٌ

ستكون عبداً عندما لا تنحني في ظل قوس النصر
يبقى، ما الذي يبقى
تقاوم أو تلائم
جنة الرؤيا يداكَ
وكاحلاك على رمادٍ باردٍ، قاومتَ أو لاءمتَ
كانوا يسألون الفقهَ والقانون والْمَتْن الذي
كتبوا هوامشه وسدّوه بجِلْدَةِ كاسر
وجميع ما يبقى لك الآن
الكتابةُ والغيابْ
هَذَيْتَ أو كاشفْتَ، إن سألوكَ
قُلْ لهم الجوابْ
هَذَيْتَ أو حاصرتَ أسرار الذبيحة
سيِّدٌ في الموتِ
لا دمُك الذي يُغري بأنخابٍ دمٌ عبدٌ
ولا العربيةُ الفصحى ستبتكر البلاغة عندما ترثيك
قــاومْ
واحفَظْ الطين الطريَّ
ولا تلائمْ
كلما سألوكَ
قاومْ
سوف تهذي سيداً ويموتُ موتكْ
عندما نصبوا السرادق خارج الأسوار وانتظروا
لكي ينهار وقتك
أين صوتك دَعْ لهم سِعةً لكي تَصِلَ القوافل مكةً بالقدس
تمتد القبائل
دَعْ لهم، يطأونَ جثتكَ الفطيسةَ
كلما واصلتَ صمتكْ
فائتدْ.
سيكون في الطين الذي ليديك شاهدة
لتسمع عندما تهذي
يقاومُ
أو يلائمُ

عندما تُغوي يديكَ سفينةُ التيه
انفصلْ
دع فُسحةً كي لا تغادرَ جنةَ الرؤيا
وقاومْ.

— 6 —

رأيتُ يدين تشتبكان في جسدٍ
رأيتهما ملطختين بالتلوينْ
صَلْصَالٌ وصورةُ عاشقٍ وتَفَجُّع الحُبلى
/خفائفها الجميلة سوف تسقط / مَنْ لها.
ويدان تشتبكان في الجسد الطريّ، وجنةٌ في الطينْ
رأيتهما
عشيقٌ شاردٌ
ومخاضها يغري اللغات / خطيئةُ العربية الفصحى
لها
ولها خفائفها الجميلة. كدتُ من خوفٍ عليها
مَنْ لها
مغْدورةً، ويدان تشتبكان في جسد تَقصّتْهُ
الحروبُ. رأيتها
ورأيتُ فيها لحظة التكوينْ.

— 7 —

اسرارُ فاكهة المساء، سريرةُ المأوى
ومحتملان :
موتٌ للذي ينسى
وموتٌ للتذكر
سيدٌ في القيد أرخى للمدائن من مدينته
سيهذي مثل شعب
مَنْ له / مَنْ لي بهاويةٍ ليهذي
جنتي نعشٌ على رئتيه
مَنْ لي / مَنْ له

طرقٌ ستأخذني إلى طرقٍ ستأخذني إلى طرقِ
وأحجارُ الطريق ستلْبَس اللحم الذي / قدمان عاريتان
في بردٍ، وكل الأسلحة
تكتظّ في أثرِ طريدٍ
ربما هلعاً / شريدٍ
ربما ولعاً
لها. قدمان
جناتٌ، جحيمٌ، ربما تنسى جميع الأضرحه

قدمان
هل قدمٌ مقدسةُ الخطايا والخُطى ابْتَهلتْ
لشيءٍ ليس يسمع
ليس يغفر

خيمةٌ ام خِرْقَةٌ في شهقة الصوفي
أسرارٌ لفاكهةٍ
ستَنسى عندما تهتاجُ في شغف وترتطم الحجارة
بالمدائن والمدى
مَنْ للصدى
مَنْ لي بصاريةٍ تسلمها المرافئُ
للمرافئ
للمرافئ

إنه يهذي
يُجانسُ أو يطابقُ أو يناقضُ
إنه يهوي إلى لغة الشرائك

من له قلب ستكسره المناديل الصديقة
أو له شعب ستخلعه الخوازيق الشقيقة
جنتي عرشٌ على قدميه

محتملان :
موتٌ للذي ينسى
وموتٌ للتذكر

سيدٌ في القوس
يصغي للقرى ويقايض المدن الحبيسة بالأغاني
عندما ضاقتْ به، اتسعتْ له
وَسِعَتْ لاكثَر من دمٍ
يمشي ويهذي
لم يكن قلباً له / جرحاً
وكل رصاصةٍ تأتي بظهر رصاصةٍ
والقلبُ، هذا الجرحُ لا ينسى
ولا يتذكر القتلى
لعلّي صرخةٌ في أمة ثكلى
لعلّي أمةٌ ثكلى
لها / مَنْ لي بذاكرة تحاصرني .. ولا تَبْلى
أتوا من فجوةٍ في البحر
جاءوا من جنوب الوقت
كان الله لايسهو
ولكن الجهات أتتْ مدججة
بما لا يذكر الجندي أو ينسى.

— 8 —

وردةٌ للبحر
أشكالٌ لموت الأرض
عرشٌ للذي يغزو.
قالت واحتمت بالخنجر الدامي
لها قتلٌ وللشعراء فاجعة الكلام
وللذي يرتد قبرُ

لم يعد قبر.
هي الأرض التي للموت
للبحر المراكبُ والمدى، ومُمالكٌ مالَتْ على رئة لشعبٍ
شَبَّ عن قفص اللغات
لها. لأطفال لها. لمغامرٍ ينجو. لهودجة المدائن
وهي تكبو غير عابئة. لشعبٍ شَطَّ في تيهٍ ويستثني
ويغفو.

غير عابئةٍ وتكبو
مَنْ لها. مَنْ لي
أرى جثثاً تسير وتحمل الرايات
تهتف في عباءاتٍ مغمسةٍ بزيت الله. تهتف. والمساجد
لم تزل في سجدة الخوف الكئيبة. لم تزل في وَهْدَةٍ
ورأيتُ نعشاً سيداً.

لغةٌ وبحرٌ
والذي يرتدُّ مرصودٌ
له قيدٌ وقبرُ

سيدي ملكٌ على بحرٍ
وذاكرةٌ ستنسى عرشها، وعريشةٌ أشهى
ومختبلون مأخوذون بالبحر المدجّج
بالمَدى العربي مثل القيد، بالقتلى
بمحتمل العواصم وهي في كيس الخراج
بأمة مصلوبةٍ تهفو لموتٍ سيدٍ
ومقاصلٍ أقسى.. وأعلى
لم تزل
مغدورةً تهتاج في قوسين
شامخةً بوجه الذبح، تصرُخ
كالذبيحة في المدى العربي .. كلا

قال لي :
ما أجمل القتلى
هنالك موزعين على المداخل يحرسون قبورهم
وأنا على قيدي هنا
هل كنت مختلجاً يواري عارَهُ
أم كنتُ مثل الوقت محتلا

مَنْ لي بذاكرةٍ تحاصرني .. ولا تَبْلى.

— 9 —

هودجها يميلُ / عَدَّلَ الفرسانُ هودجها / يميلُ
مليكةٌ في غربة الشطآن
موغلةٌ تعلمها القبائلُ

واحتمال الليل، والسفرُ الطويلُ

تختال في وجعٍ
لها في كل أرضٍ خنجرٌ
ومآتمٌ منصوبةٌ وفمٌ قتيلُ

مرصودةٌ للهتكِ، أطفالٌ لها،
ولها الصحاري والمدى العربي في قيدٍ
وهودجها يميلُ
وَحشةٌ تبكي على وحشٍ
وهودجها مليكُ الأفق
أعراسٌ لها في مأتم القتلى
ولن تغفو
ولن يهتز بعد الآن هودجها الثقيلُ.

— 10 —

رأيتُ رماده يرتدّ يَهْزَجُ يستعيد نُثَارَهُ شجراً وتاريخاً
ومحتملان :
دارٌ للذي دمه بروج الوقت
دائرةٌ لمن ينسى

رأيت رماده إرثاً لمعراج الصدى. دَرَجاً لشعبٍ شاردٍ
في غربة الأمواج مثل التاجْ. كان رماده تاجاً على شرق
النهاية وهي تبدأ. لم يكن ينسى عناصره. حريقٌ غامرٌ
وعرائسُ القتلى وبلدانٌ لها مدنٌ تقاتل أهلها وحَاصرُ
الشهداء، مرتداً من الأنقاض يخرج. لم يكن هَذيانه تعباً
ولا فوضاهُ تذكرة الخديعة. كان في وَلَهٍ رماداً سيداً.
مَلِكٌ على كلماته. غنى. رأيتُ كلامه شجراً وتاريخاً
ومحتملان :
زوجٌ للصبية حينما يتضاحك النهدان
في خجل ويكتظان بالشوق الشهيّ.
زجاجةُ الرؤيا لمن ينسى ويغفر

عندما يهذي يصوغُ رماده وطناً، وطينتهُ الطريةُ أول التكوينْ

— 11 —

شكل البرتقال وزينةُ الفوضى وخندقهُ القتالِ وعاشقٌ
يحظى بعاشقةٍ وقافلة من الأعداءْ
شاحبة

كأن نقيضةَ الاسماءْ. تذكاراتُها لغةٌ
وللكلمات في أشكالها جنس الذبيحة وابتهالات
الغبارِ

وصورةٌ للماءْ
خلّوها دما فينا
يداها دورةُ الأفلاك
أبراجٌ لها تاجٌ
وهودجها يغطينا
دعوها تحضُن الجرحي وتنتخب الضحايا
تفتدي، وتحاسبُ الموتى إذا ماتوا
دعوها حرةً فينا

ستعطينا دمائتها لنُشعل زيتها فينا.

يداها برتقالةُ دارنا وحديقةٌ لتهالك الأسماءْ
كانت عندما كانت هَوَتْ في حوضها مدنٌ وأفراسٌ
ونجمٌ شاحبٌ وشرارةُ الانواءْ.

— 12 —

فضَحَتْنا مثلما سكّينة تندسُّ
هذا حلمٌ وحشٌ
وتختالُ به

نسْألُ من أين إلى أين ولا نسألُ عن تاريخها الآتي
ولا تهتز في أحجارنا سنبلةٌ للشلكِ. لا نشكو من الوحش
فجاءت

مثلما جنية تهذي لكي تلهو بنا
فضَحَتْنا

فتركنا للذي يتشألُ من أحلامنا
حرية الموتى

تركنا كوكباً في جسد الشرق لكي يختار من أيامنا
وتركنا ماءنا الغالي لكي نشربَ من بئر المقابرْ
فَضَحَتْنَا
والذي ينهارُ لن نرأف به
للفضح هذا الجسد الهالك
هذا الجدث المالك
لم يبق لهذا الشرق من وقتٍ
سنبكي عندما يخطئه الهدمُ
افضحينا
أحجارها تاجٌ على ذهب المدائن

— 13 —

أحجارها تاجٌ على ذهب المدائن
صورةٌ للماء
أخبارُ الحدائق في خبيئتها
وليست جنة للنارْ
مدّت لليتامى للمصابين ابتلاءاً بالردى
مدّتْ يدا
كانت تحاصر آخر الرايات في شرق القبيلة
مَنْ رأى مدناً مكدسةً
رأيتُ هوادجَ القتلى على خشبٍ عتيق
ربما العربُ الذين /
مدينة صارت وتختصرُ المدنْ
تمحو وتكتبُ
مَنْ رأى امرأةً تلملمُ ظلّها لتصدّ جيشا
مَنْ رآها — في قميصٍ واحدٍ —
حلما ووحشا
مَن رأى عرباً على عرب
سلالاتٍ ، لغاتٍ
مَنْ رآها امةً منذورةً
عرشاً ونعشا.

لهنّ تميمةُ الذكرى ومدخراتها
يمشينَ مصطبراتْ
ثاكلةٌ وعذراواتْ
قمصانهن غزالةٌ مذعورةٌ وجسارةُ الأسرى
سينسين الكلامَ. خيامهنَ الهتْكُ. من أعطى
لفاكهةِ المساء سفينةً مكسورةً ومحا الهواءَ
وصادرَ الميناءْ
مَنْ أعطى النساء نوافذَ الرؤيا وأطفأ نجمةَ
الافلاكْ
مَنْ دمُنا على يدهِ
ومن يدُه على دمنا
وَمَنْ منا سيرسم آخر الأشراكْ
مَنْ للنسوة اللاتي بنينَ النهرَ والمجرى
لهن خديعة الذكرى
لهن الفقدُ والنسيان
مَنْ لي بعدهنّ ومن لهنّ عريشةٌ بعدي
وحيداتٍ على خشب المخيمِ
والمدائن تشحَذ المنفى
ويرجع لي الصدى
وحدي
لهنّ القبرُ
لي قيدٌ وللفلوات أختامُ الطرائدِ
للموائدِ نخبةُ الأقداحِ
للرسل الكثيرة فجوةٌ في التيه
مصطبراتْ
لا يمشينَ. لا يمشي بهنّ الماءُ
عذراواتْ
مَنْ لي / ما الذي أسرى لمنعطف الخريطة
مشرقاً كحمامة البشرى
غريباً غائباً
ومضرجاً بتمائم الذكرى

أحايدُ بين موتين :
انتهاء الأرض حتى قهوة المأوى
وخاتمةُ النشيدْ

بَكَتْ أو بَكَتْ في جنةٍ تهوي على القدمين. قالت، ربما،
وتشبثتْ بتهدّج الفرسان :
«من لي بعدكم. خلوا خيولكمُ
تَخُبُّ، وخيموا عندي. دعوها تَحْرُس اللغةَ الجريحةَ
كي أموت وحيدةً في حضن فارسي الوحيدْ»
بدأتُ خاتمة النشيد. بدأتُ في الذكرى.
دعوني خائفاً. لو أنهم تركوا لقلبي خسرة الفَقْد الذي ينسى،
نسوني في نساء، خبّأوني في سرير الغدر. لو أنَ السفائن
كلها ضاقت لكان القتلُ أجملَ من يدٍ مغلولةٍ في وحشة الصحراءْ.

بَكَتْ عند الرحيل وكنتُ في الذكرى.

— 15 —

بغتةً تَبْرُقُ أسرارُنا
في دماء الكوامن في آخر الليل
من ليلةٍ هيأتْها التآويل ، من قاتلٍ، من مليكٍ ملاكْ
من هناكْ
حيث أسماؤنا في بلادٍ
وأحبابُنا القاتلونَ احتموا في بلادٍ
ونحنُ بلا مدخلٍ للسماءْ

سيبقى على الموت أن يفتدينا
سيبقى لنا في القبور وأسرارنا فسحةً للفضيحة
يبقى هلاكٌ لنا
هل رأيتَ الجنائزَ تخرج محتجةً
ورأيتَ الدماء المهانة في موتها
ورأيت السماء
تضيقُ بعصفورة الأنبياء

سيبقى هلاكٌ
لنا بغتة هذه المزدهاة بتاريخها
طفلة في السبايا
لها في اللغات انتحارٌ
وفي الشجر المستهام انكسارُ الغصون
لها في الجنون احتمال البقايا
تُرى من لها في السفائن في غربة البحر في جثةٍ
وزعتْها القبائلُ في شهقة حرةٍ... أن تموت ؟

طفلةٌ صدرها في السيوف وأخبارها شغفٌ للحياة
وقُمْصانها مثل شمس تطوف ملطخةً مترعهْ
ببقايا الصباح وقهوتها للضيوف الغزاة
وميزانها غابة الأشرعة
طفلةٌ راهَقَتْ
والسلاحُ تميمتها
ظهرها في المخيم والأمة الراجعة.

16 —

نَهَضَ الرمادُ كأنه ينأى
كأن شهيقه في زينة البحر.
انتهى وقتٌ
سيأتي آخرٌ
فدخلتُ في نار العناق
سيذهبون الآن
مَنْ لي
مَن لهذي الخيمة المكسورة الوتَدَيْن
من يبقى يصدّ رصاصة الموت الأخير
بكيتُ في التذكار
كان البحرُ وحشياً وكنت ملطخاً بالفَقْدِ
مازال الدم المهدور في كأس الشوارع في رؤى خشبٍ بمنعطف
المواكب
كنت الرايات تُجْهِش :

سوف تذهبُ ؟!
مَنْ سيبقى !؟

كنتُ في شفقٍ من الذكرى
كأن السبى فينا مرةً أخرى
كأن البحرَ لن يسع المراكبَ، والنوارسُ
سوف تغرينا بمقتبل الضياع
كأنما ينأى

ويحتكمون للفوضى
لهم أسرارهم ولهم بلادٌ
جنةُ الجرح التي رسم الملائكُ حولها سوراً
سيحتكمون للفوضى
بلادٌ لم تزل
وحجارة تمشي
وقلبٌ أثقلته كثافة الرؤيا / بَكَتْ لي :
«دَعْ جوادَك يرتوي

من زرقة النهدين
دعني
ربما بعدي سيتحتدم الرماح
وبعدك الصحراء»

قالت :

«كلما تنأى...»

سيحتكمون / تبدأ هذه الفوضى
يدٌ في صخرة الوديان، سوسنة تسنّ براءة الأمواج
كنا فتية في وردة الفوضى
يعيدون الملاح للذبيحة
يستعيدون الطريدة
فتية للفقد منتصرون في أشلائهم
ويَدٌ على جرحٍ
يدٌ في جنةٍ

ساروا على أسرارهم
كان الطريق يعيرهم ليد فترسمهم على حجر الطريقْ

ملكٌ على الفوضى
وسيدةٌ بلا عرش
وقافلة توزّع جمرة الرايات، يخلعها الصديقْ
خطيئة الرؤيا
«ستذهب ؟!»
منْ لها / مَنْ لي
ستهرع عادة القتلى إلى حجرٍ / دَعُوهُ
ذلك الحجر الجميل
/ دَعوهُ
يبنون البلاد عليه / فوضاهم وجنتهم
لهم أسرارُ فاكهةٍ ونهرٌ سوف يكسر عادة المجرى
ويركض او يَشِطّ ..
وربما ينأى
لنافذة تخبئُ نجمةً لليل
هل تسع المراكبُ كل هذا
الموج ؟
دعني
دع دمي في وردة الفوضى
يفيض ويختمي كطريدة النيران خلف الغابة / البركان

يحتكمون
قائمةُ القضاة
منصةُ الحكم
المحامونَ
الذبيحةُ والطريدةُ
شاهدُ الرؤيا
وحراسُ المدينة
لم يزل ينأى
تلاحقه المذابحُ
مَنْ له / مَنْ لي.

/ يوليو 83